مقدمة
الطبعة الثانية

المثل الشعبي هو تعبير عن نتاج تجربة شعبية طويلة أدت إلى عبرة وحكمة، وتؤسَّس على هذه الخبرة الحض على سلوك معين، أو التنبيه من سلوك معين.

والأمثال الشعبية أشبه ما تكون بالرواية الشعبية التي تقص قصة موجزة فتسهم في تكوين وجدان الناس حين يلقنون أركان الحكمة الشعبية ومعارج السلوك المستحبة.

ومجموعة الأمثال الشعبية، على تنافر بعضها وبعض في كثير من الحالات، تكوّن ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة. فهي إذن جزء من ملامح الشعب وقسماته وأسلوب عيشه ومعتقداته ومعاييره الأخلاقية.

والمثل لون أدبي معبر طريف المنحى، عظيم الفائدة، يلخص تجربة إنسانية، يتردد على ألسنة الناس. على أن شعبية المثل مكنته من احتلال موقع جليل في نفس قائله وسامعه، وجعلت له مكان الصدارة، من حيث الأهمية والتأثير بين سائر فنون القول الشعبية.

ويعتبر المثل الشعبي من أكثر فروع الثقافة الشعبية اكتنازاً وثراء. وفي معظم الحالات يجسد المثل الشعبي تعبيراً عن نتاج تجربة شعبية طويلة تخلص إلى عبرة وحكمة،

وتؤسس على هذه الخبرة نصيحةّ على سلوك معين.

والمثل الشعبي هو ليس مجرد شكل من أشكال الفنون الشعبية، وإنما هو عملٌ كلاميٌ يستحث قوةً ما على التحرك. إضافة لذلك فإن المثل الشعبي يؤثِّر أعظم الأثر في مسار الأمور وفي سلوك الناس. فالمعنى والغاية يجتمعان في كل أمثال العالم. وهذه الأمثال وإن اختلفت في تركيب جملها أو في صلاحها أو مدلول حكمتها أو سخريتها، فهي كتابٌ ضخم يتصفّح فيه القارئ أخلاق الأمة وعبقريتها وفطنتها وروحها.

ويعد ضرب المثل من أكثر الأشكال التعبيرية الشعبية انتشاراً وشيوعاً، ولا تخلو منها أية ثقافة، إذ نجدها تعكس مشاعر الشعوب على اختلاف طبقاتها وانتماءتها، وتجسد أفكارها وتصوراتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ومعظم مظاهر حياتها، في صورة حية وفي دلالة إنسانية شاملة، فهي بذلك عصارة حكمة الشعوب وذاكرتها.

وتتسم الأمثال بسرعة انتشارها وتداولها من جيل إلى جيل، وانتقالها من لغة إلى أخرى عبر الأزمنة والأمكنة، بالإضافة إلى إيجاز نصها وجمال لفظها وكثافة معانيها.

ولقد حظيت الأمثال الشعبية بعناية خاصة، عند الغرب والعرب على حد سواء، ولعل عناية

الأدباء العرب بهذا الشكل التعبيرى كان لها طابع مميز، نظراً للأهمية التي يكتسبها المثل فى الثقافة العربية، فنجد ابن الأثير يشير إلى أهميتها وهو يحيط المتصدى لدراسة الأمثال علماً أن الحاجة إليها شديدة، وذلك أن العرب لم تصغ الأمثال إلا لأسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشئ.

ما هو المثل؟

المثل عبارة عن قول مأثور يتضمن نصيحة شعبية، أو حقيقة عامة، أو ملاحظة تجريبية أو حتى موقفاً ساخراً من عادة اجتماعية أو أسلوب سياسى معين، ومن خصائص المثل الشعبى شيوعه وكثرة استعماله بين الناس فى عصر معين، أو حتى فى عصورٍ متباعدة. ولأن الأمثال الشعبية كانت تتصف أيضاً بالتداول الشفوى بين أفراد الشعب، فلم يهتم العلماء بتدوينها، ولعل أحد أسباب ذلك يرجع إلى أنها كانت تصاغ باللهجة العامية، التى كان العلماء يهملونها أو يسقطونها من اعتبارهم.

ما هى الأمثال الشعبية؟

تقال الأمثال الشعبية لأنها من أبرز عناصر الثقافة الشعبية فهي مرآة لطبيعة الناس ومعتقداتهم، لتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية، وتعكس المواقف المختلفة، بل تتجاوز ذلك أحياناً لتقدم لهم انموذجاً يُقتدى به في

مواقف عديده، والأمثال تساهم في تشكيل أنماط اتجاهات وقيم المجتمع.

الأمر الذي جعلها محوراً أساسياً لاهتمام الكثير من العلماء والباحثين المعنيين بدراسة الثقافة الشعبية وبداية الأمثال الشعبية ونشأتها، ليست وليدة الساعة، بل لكل مثل شعبي حكاية تشكل نموذج عيش وتماثل مع التجربة التى أحاطت بمن ضرب به المثل.

من الذى يصوغ المثل الشعبى؟

شخص على درجة عالية من الحكمة، ولديه قدرة على التركيز، وموهبة خاصة فى استخدام اللهجة الشعبية، وجودة اختيار ألفاظها.

ولو كان علماء البلاغة قد وجهوا اهتمامهم قليلاً إلى كثير من الأمثال الشعبية لوجدوا فيها جمالاً أدبيًا لا يقل بحال من الأحوال عن الجمال الموجود فى أدب الفصحى.

فى الأمثال الشعبية: يوجد السجع، ويوجد الجناس، ويوجد الطباق، ويوجد الخيال، وتوجد الصورة المعبرة بدقة عن الموضوع المجرد المراد الإمساك به فى شبكة الألفاظ، كما أن الأمثال الشعبية تتميز بالإيجاز الشديد وهو اختصار المعانى الطويلة أو المتعددة فى ألفاظ قليلة معدودة، كما أن صياغة المثل تهدف إلى جريانه على ألسنة العامة، وسهولة حفظه لمن يسمعه ولو مرة واحدة، لذلك نذهب إلى أن

(مؤلفى الأمثال الشعبية) بالإضافة إلى كونهم حكماء، كانوا أدباء بامتياز، ومع ذلك فقد فضلوا عدم ذكر أسمائهم، والوقوف بصمت وتواضع خلف إنتاجهم الذى كتب له الشيوع والاستمرار، ربما أكثر مما كتب فى أدب الفصحى!.

الأمثال الشعبية المتوافرة لدينا الآن ترجع إلى مختلف العصور التى مرت بها مصر منذ الحضارة المصرية القديمة، مرورًا بالعهد القبطى، ثم العصر الإسلامى فى مرحلتى ازدهاره وتعثره. لكننا ينبغى أن نشير هنا إلى أن الكثير، بل الكثير جدًا، من الأمثال الشعبية المصرية قد اندثر لتشعب عوامل مختلفة، منها:-

أولاً: عدم الاهتمام بتدوينه نتيجة تداوله بين الناس وشيوعه من ناحية، والنظرة الدونية للهجة الوارد بها من ناحية أخرى.

ثانيًا: اندثاره باختفاء الجيل أو الأجيال التى كانت تحفظه وتتداوله.

ثالثًا: مصادرة السلطات الحاكمة أو المسيطرة له أحيانًا نظرًا لما كان يحدثه من تعبئة الرأى العام ضدها.

وهكذا لا ينبغى أن نحكم على ما وصلنا من الأمثال الشعبية بأنها تمثل (كل) التراث، وإنما هى (مجرد عيّنة) فقط، لكنها مع الفحص والتحليل يمكن أن تضع أيدينا على الاتجاهات العامة لهذا التراث الثمين.

التناقضات في الأمثال الشعبية:-

يقول البعض إن المثل ليس مجرد شكل من أشكال الفنون والثقافة الشعبية، وإنما هو عمل كلاميّ يستحث قوة ما على التحرك.

كما أنه من المعروف بأن المثل يؤثر أعظم الأثر في مسار الأمور وفي سلوك الناس، فالمعنى والغاية يجتمعان في كل أمثال العالم، وهي وإن اختلفت في تركيب جملها أو صلاحها أو مدلول حكمتها أو سخريتها، كتاب ضخم يتصفح فيه القارئ أخلاق الأمة وعبقريتها وفطنتها وروحها.

ولا بد من أن نلاحظ أن كثيرًا من الأمثال لا تتفق، بل قد تتناقض، لو وضعت جنبًا إلى جنب، كمثل قولهم: «الدفا عفا ولو كان في الصيف»، وقولهم «شمس الصيف أقصى من برد الشتا»، أو «سنة الشوب البس التوب».

فالمثل الأول يدعو إلى الاستمتاع بالشمس والتماس الشفاء منها، والثاني يدعو إلى التحذير منها والوقاية من التعرض لها.

مصادر المثل الشعبي:-

من الأمثال الشعبية ما تفرزه «حادثة» أو «حكاية» أو «نكتة شعبية» حيث تتلخص خبرة حياتية أوموقف في عبارة أو تعليق موجز، وقد يستعمل المثل بين الناس ولا يعرف قائله.

وقد وجد المثل سبيله إلى البلاغة العربية فيما عرف باسم الاستعارة التمثيلية، حيث

يوحي بإجراء تشبيه بين حالتين: الحالة الراهنة التي يستعير فيه القول المتمثل به، والحالة التي صدر عنها ذلك القول، ويكون المثل إشارة موحية تتكئ على خبرة حياتية سابقة.

ومنها ما اقتبس عن الفصحى بنصه أو شئ من التغيير الطفيف على لغتها واستمد من كتب التراث الأدبى أو من الأغانى الشعبية وكذلك ما هو عصارة تجارب وممارسات عديدة كانت تلجأ إليها بعض الشعوب، وهذا ما يدخل ضمن إطار ما يسمى بالطب الشعبى أو التقليدى وهناك أمثال تحمل بصمات معتقدات قديمة جداً، مما يشير إلى قدم هذا التراث الذى وصلنا وهناك أمثال تحمل ملاحظات دقيقة لأعماق النفس البشرية، أو التجربة الإنسانية العامة لا شك بأن هناك أمثالاً مستمدة من خلال التعامل مع شعوب وثقافات أخرى.

وباستعراض هذا المجال في المثل الشعبي نرى أنه يستمد من عدد من المصادر:-

١- ما استمد من حكاية أو نكتة شعبية: «أحسن ما تأكل رز وبادنجان خبي جسمك ما يبان». وقد يستعمل المثل بين الناس، ولا يعرف كل من يستعمل تفاصيل الحكاية أو الحادثة التي وراءه، وإنما يتعاملون مع الإيحاء العام لعبارته.

مثل: «اللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بيقول كف عدس».

٢- ما اقتبس عن الفصحى بنصه أو بشيء من التغيير الطفيف: «نص البطن أحسن من ملوها»، أو «الأكل في الشبعان خسارة»، وهو تعبير عن المثل المعروف: «ما ملأ ابن أدم وعاء شرا من بطنه».

٣- ما استمد من كتاب التراث الطبي الأدبي، وخاصة بعض كتب طبقات الأطباء، وما ورد فيها من وصايا صحية، كان لها أهميتها. مثال ذالك ما أورده ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وخصوصاً ما جاء في المحاورة بين الطبيب العربي الحارث بن كلدة الثقفي وكسرى أنو شروان في بلاد فارس.

٤- المستمد من الأغاني الشعبية: «كلمة يا ريت ما بتعمر بيت».

٥- ومن الأمثال ما هو عصارة تجارب وممارسات عديدة كانت تلجأ إليها بعض الشعوب، وهذا ما يدخل ضمن إطار ما يسمى بالطب الشعبي أو التقليدي. مثال: «كاسات الهوا بتشيل العلة من غير دوا» وكذلك قولهم: «التوم قتال السموم».

٦- وهناك أمثال تحمل بصمات معتقدات قديمة جداً، مما يشير إلى قدم هذا

التراث الذي وصلنا، مثل: «البلد اللي بتخاف من وحمها كول من بصلها».

٧- وأمثال تحمل ملاحظات دقيقة لأعماق النفس البشرية، أو التجربة الإنسانية العامة مثل: «الطفل إن بكى يا من جوع يا موجوع».

٨- ومما يلحق بالأمثال تعابير أعجب الناس بجماليتها أو بالصورة الكاريكاتيرية الساخرة فيها مثل: «مريضنا بيعن وبياكل مثل الجن»، وأيضاً: «فطار مع ملك وتغدى مع أمير وتعشى مع شحاد».

٩- لا شك بأن هناك أمثال مستمدة من خلال التعامل مع شعوب وثقافات أخرى، ومنها كتب الديانات الثلاثة، ومصادر أخرى مثل: «النظافة من الإيمان والوساخة من الشيطان».

خصائص الأمثال الشعبية في بلاد الشام:-

إذا كانت الأمثال حكماً شعبية شفهية مجهولة القائل فهي واسعة الانتشار بين العامة والخاصة، أقرتها مجموعتهم وتداولوها في ما بينهم، ويعود سر ذيوعها وانتشارها إلى جملة خصائص امتازت بها، أهمها:-

أولاً- أصالتها: كثير من الأمثال المعروفة في بلاد الشام، قديمة الجذور، عربية المنشأ، مع أنها ليست بلفظها الفصيح، إنما طرأ بعض التعديل والتحريف في معانيها وألفاظها وأسباب

قولها عن أصلها العربي، ولعل البعد الزمني سر ذلك الاختلاف.

ونستشف عدداً كبيراً من هذا النوع في أحاديثهم اليومية، وما ذلك إلا لتعلق الشعب في تلك المناطق بمعظم القيم والأخلاق العربية الأصيلة، تلك القيم التي اكتسبت وتكتسب محتواها تاريخياً واجتماعياً.

وكثير من أمثالهم ما ورد ذكره في مؤلفات ترجع إلى سبعة قرون بعد أن أصابه شئ من التحريف، كما في «مجمع الأمثال» للميداني وفي «المستطرف من كل فن مستظرف» للأبشيهي، الذَيْن جمعا عدداً ضخماً من الأمثال الشعبية العربية.

ومن أمثالهم ما لم يعرف أصلها ولا مصدرها، مع ذلك بقيت حية وظلت الأجيال تتناقلها، لأنها بنيت تجارب تلك البلاد وخلاصتها. وتبدو الأصالة بوضوح حين ندرك الأمثال الشعبية التي تجري على أمثلتهم وقد أخذوها بلفظها، أو بمعانيها من الدين الإسلامي الحنيف كالمثل: «النظافة من الإيمان»، أو من الأدب العربي القديم.

ثانياً– واقعيتها: تمتاز الأمثال الشعبية في بلاد الشام بواقعيتها التي اكتسبتها السيرورة في ما بينهم، فهم يحفظونها بسهولة ويسر، وتدور بألسنتهم بسرعة وسهولة كقولهم: «مين وفّر غداه لعشاه ما شمّت فيه

عداه»، أو: «نضف بيتك ما بتعرف مين بدوسه ونضف خدك ما بتعرف مين ببوسه».

ثالثاً- بلاغتها: كما تمتاز أمثلتهم -ككل الأمثال- بإيجاز اللفظ وتركيزه، وبإصابة المعنى ودقته وببعد مغزاها، فهي تعبر عن المعنى الكثير باللفظ القليل، على طريقة خير الكلام ما قل ودل، كما في المثل: «التوم قتال السموم»، أو: «بضر المعدة ولا بينفع الأعدية».

رابعاً- موسيقاها: لا تخلو أمثالهم من الرشاقة اللفظية، ففيها جرس موسيقي وتناغم بين ألفاظها وتناسق بين الجمل، وتجانس بين الأحرف، وجملهم وتراكيبهم في أمثال قصيرة بشكل عام، مما سهل حفظها، وساعد على تداولها بين العامة.

وتأتي موسيقا الأمثال إما على السجع والفاصل، كما في المثل: «نام بكير وفيق بكير وشوف الصحة شلون بتصير»، أو من اختيارها للأحرف المتجانسة ضمن الكلمات، والكلمات المتوافقة ضمن الجمل، كما في المثل: «كول جبس وطلّع عخدودك وكول بطيخ وطلع عزنودك». ويحافظ سكان بلاد الشام على السجع غالباً سواء أقصرت الجملة أو طالت، كما في المثل: «الخبز الحاف بيعرض الكتاف».

أغراض الأمثال في بلاد الشام:-

لا يقول الإنسان كلاماً إلا وله هدف من ورائه أو غرض يريد تحقيقه، وإلا عدّ هذا الكلام

هذياناً وهراء. وكذلك حين تتردد الأمثال على ألسنة الناس، ندرك من خلالها روح هذا الشعب، وما يعمل فيه من نوازع، ونستكشف آراءه في مختلف شؤون الحياة ونظرته إلى الكون، كما وتعكس أمثاله بصدق، مشاعره وأحاسيسه وآماله وآلامه وأفراحه وأحزانه وتفكيره وفلسفته وحكمته.

وبما أن هذه هي حالة أمثالهم الشعبية، فإننا واجدون أن كثيراً منها تتحدث عما وصلوا إليه ورفعوه مرتبة الحكمة، فبرأيهم مثلا: «علة الموت مالا دوا».

وبما أن الأمثال مرآة لكل قوم، لذا نرى الأمثال الشعبية في بلاد الشام، مرآة لأخلاق سكان تلك المنطقة وعاداتهم وطبائعهم وسجاياهم وأحوال معيشتهم. كما تصور أمثالهم عاداتهم المتوارثة في مجال المعالجات التقليدية.

ولطالما صورت الأمثال الشعبية في بلاد الشام الحرمان الذي تعيش فيه العامة، وضيق ذات يدهم فعندهم حاجات ضرورية يحلمون بها، ولا يستطيعون عمل جزء بسيط منها ومن هنا تصيبهم مختلف العلل، كقولهم: «البرد والقلة سبب كل علة».

وإذا نظرنا إلى الأمثال في مجموعها من زاوية المضمون وجدنا انتماءها إلى أحد المضامين التالية:

١- قيمية: ومثال عليها الأمثال التي تعبر عن موقف من بعض المسببات المرضية، والتي أكثر ما تكون تلك المرتبطة بعادات الغذاء، مثل: «الأكل في الشبعان خسارة»، وكذلك قولهم: «الخبزة المبلولة دوا المعلولة».
٢- وصف بعض الأنواع من الآلام ومحاولة تقدير شدتها، مثل: «وجع الفلس ولا وجع الضرس».
٣- التعابير التهكمية، مثل: «كول مع الكافر ولا تاكل مع طويل الأظافر».

openkan.com